مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255
المجلد5،العدد2 – ديسمبر 2018

الجزائر في عيون الرحالة محمد بن عبد الجليل الفزاني الليبي من خلال مخطوطه " ريُّ الغليـل في أخبار بني عبد الجليل"

Algeria in the eyes the journey Mohammed ben abd Al-jalil El-Fazzani al-Libi through his Manuscript "Ray al-Ghalil in the news of Bani Abd al-Jalil"

د.رضوان شافو*، جامعة الوادي، الجزائر.
redhouane-chafou@univ-eloued.dz

تاريخ التسليم:(2018/06/20)، تاريخ التقييم:(2018/08/14)،تاريخ القبول:(2018/10/31)

ملخص :

يتناول هذا المقال دراسة وصفية لرحلة محمد بن عبد الجليل الفزاني اللّيبي إلى الجزائر خلال القرن 19م، وذلك بطلب من السلطة الاستعمارية،وقد تضمنت هذه الرحلة وصفا جغرافيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ودينيا للحياة التي كان يعيشها المجتمع الجزائري، وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز كيف وظفت السلطة الاستعمارية "أدب الرحلة" في التغلغل الاستعماري إلى عمق المناطق الجزائرية التي لازالت لم تخضع للسيطرة الفرنسية.

الكلمات المفتاحية: الرحلة،المجتمع الجزائري، التغلغل الاستعماري،المخطوط.

Abstract :

This article deals with a descriptive study of the journey of Mohammed ben abd Al-jalil El-Fazzani al-Libi to Algeria during the 19th century, at the request of the colonial authority.

This journey or trip included a geographical, social, economic, political and religious description of Algerian society. The journey "in the colonial penetration into the depth of the Algerian areas, which are still free

Keywords: The journey, Algerian society, Colonial penetration, Manuscript.

المؤلف المراسل: د. رضوان شافو، الإيميل: redhouane-chafou@univ-eloued.dz*

مقدمة:

من باب الصدفة وانأ احضرا بحثا تاريخيا أكاديميا حول منطقة وادي ريغ خلال الحقبة الاستعمارية، وقع في يدي جزء من مخطوط " **ري الغليل في أخبار بني عبد الجليل**" للرحالة الليبي محمد بن عبد الجليل الفزاني، عن طريق صديقي السيد حسين المزداوي القائم بالأعمال في السفارة الليبية بمدغشقر، حينما طلب مني معلومات تخص منطقة وادي ريغ لإثراء معلوماته، ولاستكمال تحقيق هذا المخطوط، الذي وجده بالمكتبة الوطنية الفرنسية بباريس ،وأرسل إليَّ جزء الرحلة المتعلق بالجزائر ،والجزء المتعلق بشخصية المؤلف، ولكون أن هذا الجزء يحتوي على معلومات مهمة حول التراث الشعبي من عادات وتقاليد، وحكايات وأساطير، وشخصيات، وحقائق تاريخية حول الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ارتأيت تقديم ودراسة هذا الجزء المخطوطي لأهمية المعلومات التي جاءت فيه ولتوضح صورة الجزائر خلال القرن التاسع عشر.

أهمية الدراسة:

الحديث عن هذا المخطوط لا يخرج عن سياق الحديث عن أدب الرحلة، لكون إن الرحلة احتوت تقريبا على نفس خصائص كتب الرحالة العرب السابقين مثل: " حسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للمقدسي" ، " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي ، " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" لابن جبير، " تحفة النظار في غرائب الأمصار ،وعجائب الأسفار" لابن بطوطة ،" ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا " لهاينريش فون مالتسان، " إفريقيا" لمرمول كربخال... وغيرها من الرحالات.

وعلى الرغم من أن الرحلة تعتبر مصدرا تاريخيا ، إلا أنها من جهة الأدب أضحت رافدًا من روافد الأدب ، وهو ما يسمى بأدب الرحلات ، خاصة إذا كان الرحالة أديبا تدخل الرحلة في هوايته ، فمن شأن ذلك أن تكون رحلته مفيدة إلى جانب المعرفة التي تضيفها للقارئ وتزيده متعة وجمالا (الزريقي ، 2010، ص1)، وهذه رسالة كل أدب كما يقول أحد النقاد : " إن الغاية المرجوة من كل فن أدبي أصيل هي تحقيق المتعة والفائدة ، المتعة التي يحققها الفن بوسائله التصويرية المؤثرة في النفس، والفائدة التي يأتي بها الفكر بما يحمله من رؤى ومعان يسعى إلى ترسيخها في عقل المتلقي، وبهذا فإن الأدب الحقيقي هو الذي يضيف إلى رصيد عقل المتلقي ونفسه قيما معنوية وجمالية "(حنطور،2008، ص7)

وأهمية هذه الرحلة المخطوطة جاءت لتبين أن أدب الرحلة شهد تطورا وازدهارا منذ القرن الثالث للهجرة والى غاية اليوم، غير أن أهداف الرحالات تختلف وفقا لمتغيرات محلية ودولية، فعلى سبيل الخصوص معظم كتب الرحالة العرب كانت بدواعي اقتصادية وثقافية، أما كتب الرحالة الغربية فلا نستبعد أن تكون تجسسية واستخباراتية، واخص بالذكر الفرنسيين الذي طلبوا من الرحالة الليبي محمد بن عبد الجليل الفزاني أثناء إقامته بباريس، كتابة رحلته عام 1852، ومثل هذه الطلبات الفرنسية تهدف إلى

التعريف بما يشاهده الرحالة ولبث الدعاية الموالية للفرنسيين ومدينتهم، هذا بالإضافة إلى بعض الرحالات التي ترجمت في المجلات الفرنسية، حيث يعرف بها الكتاب الفرنسيون لعلاقاتها باهتمامات بلادهم.
(سعد الله ،2005،ص358) خاصة الرحالات التي تناولت الصحراء الجزائرية، وكان الغرض منها استكشافها وتسهيل مهمة التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري.

منهج الدراسة:

قد تم الاعتماد على المنهج الوصفي وذلك بهدف تتبع مجريات الرحلة عبر مختلف المناطق الجزائرية، ورصد الحياة المجتمعاتية للجزائريين خلال القرن 19م، ومع إبراز عنصر التحليل والمقارنة مع مختلف المراجع التي تناولت التاريخ الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للجزائر في هذه الفترة.

التعريف بالرحالة:

ليس هناك ترجمة ذاتية مباشرة للرحالة في مخطوطه، غير أننا من خلال قراءتنا للمخطوط وجدنا انه يعرّف نفسه هو محمد بن السلطان عبد الجليل بن غيث ابن احمد بن سيف النصر(الفزاني،1852، ص 01-10)، ويقال انه ابن آخر أمراء فزان(سعد الله،2005،ص358- 359)،أضف إلى ذلك أننا لم نجد تاريخ ميلاده ولا مكانه، ولكن الراجح والأكيد هو من البلد الشقيق ليبيا.وحسب بعض الأقوال تذكر انه من مواليد 1821م ، بينما تاريخ وفاته يبقى مجهولا.وتحدث المؤلف في رحلته عن حياته وزواجه من ابنة وزير سلطان برنو ، والظروف التي جعلت منه رحالة (غصباً عنه) ، زائراً أو هارباً أو هائماً على وجهه في أصقاع الأرض ، من تيبستي ، إلى سلاطين برنو ، ثم الأراضي الليبية ، ليحضر اللحظات الأخيرة من حياة والده وعمه سيف النصر ، ثم يخرج هارباً إلى الصحراء وتأخذه الصدف إلى مصر والحجاز ، والعودة إلى مصر ، ثم السفر إلى استانبول ، فتضعه السلطات التركية في سجن طرابزون مع غومة المحمودي وبقية الثوار الليبيين الآخرين، ثم يهرب إلى مالطا ، ويغادرها إلى تونس ، ثم إلى الجزائر، وهنا تتمدد التجربة وتطول الأحداث والمواقف والتفاصيل بصاحبها إلى أن يغادر إلى باريس عام 1852 (الفزاني،1852، ص 01-10)

ويبدوا لنا أن الرحالة الليبي من خلال مخطوطه كان مواليا للفرنسين و لايخفي إعجابه بالفرنسيين، خاصة عند مدحه للعاصمة الفرنسية باريس، والقول التالي يؤكد ذلك: " فلما أتينا إلى الباريز تكلمنا شعر على أهل الباريز وسلطانه: على الباريز وأهله وعلمائه ووزراء هو عساكره وسلطانه الري نبا اليوم بنابرت ،وعلى عمه السلطان بنابرت المرحوم، وهذا ما قلت على الباريز "(الفزاني،1852،ص101)، وفي موضع اخر يقول : "في الباريز روضة مشيدة، فيها قبر السلطان بنابرت المرحوم، مولى السيف المسلول؛ ولكن أوصيك يا زاير قبر السلطان بنابرت مولى الخصايل، تأدب، وامشي بسياسة، وانظر إلى أحسن ما صنعوا، وانظر للنور الذي على وجه السلطان بنابرت، مولى الشوايع المرحوم، وقد قالوا مات،

وما هو بميت، لأنه خلّف قول يستمثلوا إليه ويحكموا به – أهل العقول – وقد قلنا إن السلطان بنابرت سيكون آخر الزمان نبي عند جميع أهل العقول، فهنيئاً يا أهل الباريز لكم لما تنقل من أرض عدوكم، ودفن في بلادكم السلطان بنابرت مولى الخصايل المرحوم " (الفزاني،1852، ص103).وهذا المدح يدل على أن السلطات الفرنسية التي كانت قد تركزت في الجزائر قد جدبت مؤلف " ري الغليل"، وبدأت تبحث لها عن عملاء ومناصرين في شمال وغرب افريقيا.(سعدالله،2005، ص 358)

التعريف بالمخطوط :

"ري الغيل في أخبار بني عبد الجليل من سلاطين فزان"، مخطوط مكتوب باللغة العربية تغلب عليه اللهجة العامية، يحتوي على مائة وثلاث ورقات ، تم تأليفه بباريس (فرنسا) سنة 1268هـ/1852م، وهو عبارة عن رحلة شملت أقطار المغرب العربي ومصر والحجاز واسطانبول والسودان القديم، ويقال أن السلطة الاستعمارية الفرنسية هي التي طلبت منه كتابة رحلته،وذلك أن المؤلف قبل مغادرته باريس سلمه إلى السيد الحاج عبد الحميد بأي بطلب منه، ليسلمه بدوره إلى " ولاة الأمور" الفرنسيين، ويذكر أبو القاسم سعد الله أن الحاج عبد الحميد بأي الذي رافق الرحالة الليبي في آخر رحلته، انه صور نسخة من المخطوط، وحملها سنة 1853م إلى الأب بارجيس الأستاذ في جامعة السربون آنذاك، ليقوم بترجمة المخطوط إلى اللغة الفرنسية.(سعدالله،2005، ص358– 359) ويذكر الأستاذ علي مصطفى المصراتي أن المؤلف في رحلته سجل فيها أحداثا ووقائع تاريخية عن موطنه ليبيا والبلاد العربية التي لجأ إليها ، وتجول بها ، ويحكي في أسلوب مثير مشاهداته في الصحراء الليبية ما بين أرض فزان وصحراء سيوة ، وريف مصر والقاهرة ، ومشاهداته في الحجاز وتونس والجزائر.(المصراتي،1977، ص203 – 218)

قراءة في الجزء المتعلق بالجزائر:

أ/العادات والتقاليد الشعبية :

لقد تحدث الرحالة على الكثير من العادات والتقاليد التي صادفته خلال رحلته في باتنة وومیلة وبسكرة ووادي ريغ ،حتى وان بدت له هذه العادات غريبة لا يقبلها المنطق والذوق، وقد تناول في هذه العادات عدة مظاهر مختلفة ، وأنواع الأطعمة المقدمة في الاحتفالات المحلية كالأعراس والمناسبات الدينية مثل شهر رمضان، وذكر هذه المظاهر في اعتقاد الرحالة يدخل في إطار التعرف على عادات المجتمع وتقاليده ، وكأنه يريد للقارئ أن يربط الصلة بين ما هو موجود حاليا من عادات ، وبين ما كان موجود في الماضي، على أساس انه لتزال بعض العادات باقية كما هي .

فقد استعرض مثلا لما حلّ بمدينة ميلة كيفية إعداد الكسكسي، وشهرته عند المناطق التي تدخل ضمن نطاق عمالة قسنطينة، وفي ذلك يقول :« وأما نسوان ميلة؛ ما صنعتهم شيء إلاّ يفتلوا الكسكسي من السميد، ويأتي الناس من جميع وطن قسنطينة وعمالتها، ويشرون من أهل ميلة كسكسي المحور،

وهو يصنعوه من السميد، وهو عند جميع وطن قسنطينة لا يعلى على محور ميلة، وهو يسوى الصاع ستة عشر دورو، وكان الصاع يوزن ثلاثة قناطر».(الفزاني،1852،ص18).

كما ذكر "صاحب ري الغليل " ملاحظاته حول احد الأعراس في منطقة تمرنة الواقعة بالجنوب الجزائري ، فهو يقول :« وأما نحن لما كنا في تمرنة، جعلوا عرس – أهل تمرنة – وضربوا طبل لهم وغيطة خارج البلاد، وخرجت جميع النسوان الصغار، والأولاد الصغار، ورفعوا سلاحهم؛ وهو لما يضرب الطبل، يرقصون البنات الصغار على ذلك الضرب، وهم يحكمون أيديهم في بعضهم، ويرقصون ويهزون أكتافهم، ويرفعون ايدهم حتى يوصلوا إلى الأولاد الذي هم أندادهم [فـ]يضربوا عليهم البارود، وهم يرشقون النسوان [بـ]أشجار الحبق في رؤوسهم، ولما يكون قرب الليل يرجعوا إلى دار العريس، ويجعلوا لهم الطعام، فيأكلوا من ذلك الطعام، وكل أحد يروح إلى موضعه، وفي الغد يأتون، ويلعبون مثل اليوم الأول ».(الفزاني،1852، ص 34–37)

وفي موقف غريب أيضا يستعرض الرحالة عادة التصقت بالمرابطين والروحين من الأولياء الصالحين وتأثيراتهم على الحكام والسلاطين لطلب العفو والآمان ضد كل من قتل وسرق أو ارتكب ظلما ، وهذا ما ذكره صاحب ري الغليل في قوله : « وأما أهل سيدي راشد [فإنه] إذا قَتل أحد من بلاد أخرى روح، أو عليه ظلم من السلطنة، فلما يهرب لبلادهم، فلا يقدروا – السلطنة – [أن] يخرجوه، ويقعد يأكل ويشرب في زاوية سيدي راشد، حتى يخرّجوا – أولاد سيدي راشد – السبحة امتع سيدي راشد، وهي سبحة لها حبوبات كبار، وهي يجي فيها عشرة أرطال من حطب الرتم، وهي فيها خمسة آلاف حبة، ويخرجوا ذلك السبحة، ويخرجوا سناسق خضر وحمر وصفر، ويخرجوا بناديرهم، ويمشوا ويرفعوا الهارب معهم حتى يوصلوا إلى تقرت الذي فيها سلطانهم، فلما يوصلوا قرب تقرت بموضع يقال له دبوسة، يحلوا سناسقهم، ويضربوا بناديرهم، ويدخلوا يمدحون حتى يدخل[ون] إلى القصبة الذي فيها سلطانهم بتقرت، فيجعلوا السبحة في رقبة الهارب عندهم، ويضربوا البندير كثير، ويزيد[ون] في الضرب حتى يخرج لهم السلطان من شدة زف البندير والعياط، ويأتي إليهم ، ويُقدَم له الرجل الذي قتل أو سرق أو جرى عليه ظلم ،وخايف من السلطنة، ويبوس على السلطان، فيأخدوا – المرابطين – السبحة، ويجعلوها في رقبة السلطان، ويقال له: الأمان لهذا الرجل يا سلطان [لكي] تحضر لك بركة صاحب هذه السبحة – سيدي خليل – فيقول لهم: اني عفوت عنه على أجل سيدي خليل، وعلى أجلكم يا أولاد سيدي خليل، ويبوس على ذلك السبحة، ويقدم كبيرهم، ويدوّر السبحة على رأس السلطان سبعة مرات، ويدعون له بالنصر وطول العمر، ويهدي لهم السلطان شيء من أمور الدنيا، أو يرمي على كبيرهم برنوص مَلَف أحمر أو أخضر، ويظيف[ون] عند السلطان ثلاثة أيام، ثم يتوجهوا إلى بلادهم، وهذا صنعتهم أهل سيدي خليل» (الفزاني،1852،ص ص 40– 42)

ومن عجائب ما رواه صاحب ري الغليل عادة صوفية غريبة غلبت عليه الدروشة والخرافات، وتعرف بحضرة " لالا مليحة" ،أو "حضرة رجال لاملاح"، ويتبع هذه الحضرة مدائح دينية مع ضرب الدف ، ورقص بعض الحاضرين على تلك الأنغام، ، وإن الاستقراء التاريخي لهذه الظاهرة يسمح لنا بالقول بأن ما يسمى بالحضرة هي طريقة صوفية ، إذ احتضنها المتصوفون وصبوا فيها كل تصوراتهم وأحاسيسهم وتجلياتهم وأفكارهم عن الكون والحياة والموت ، إلا أنه مما تجدر الإشارة إليه هو أن هذه الحضرة قد احتواها الاستعمار الفرنسي في النصف الأول من القرن العشرين، ونفخ فيه من روحه ليفسد من خلالها عقيدة المجتمع المحلي ، فشجع رجالها وألبّهم على رجال الإصلاح ، فانحرفت عن طبيعتها ومقصدها الروحي فصارت ملجأ للمشعوذين والفساق. وفي ذلك يقول المؤلف :

« ومن تبسست يقابلك قبتين، يقال لهم رجال المليحة، وهي كانت امرأة مدفونة فيهم، يقال لها للاّ مليحة، فهو يأتون أول الخريف – الأركاب – من جميع بلدان وادي ريغ، ويزوروا للا مليحة، ويجعلوا فيها عرس، ولا يقعد في وادي ريغ أحد إلا يزور رجال المليحة، ويمشي سلطان تقرت، ويجعلون فيها طعام وحَضرة، ولا يقعد في تقرت لا راجل ولا مرأة إلا مشت وزارت رجال المليحة.

وبعد رجال [المليحة] يمشوا جميع الناس والأركاب، ويتوجهوا من بلاد إلى بلاد، ويزوروا المرابطين والزوي في جميع بلدان وادي ريغ، حتى يوصلوا إلى الورير، وهو آخر بلاد من بلدان وادي ريغ، ويجعلوا فيه حضرة ويشطحوا فيها، ويقال أن جميع الأحناش واللفاع والعقارب تخرج في ذلك الحضرة، وتشطح على زف البندير؛ فمشينا معهم حتى وصلنا إلى الورير، فلا رأينا شيئاً من ذلك الأمر الذي يقولون فيه، وما هو إلا كذب وبهتان؛ ورجعنا من الورير بعد ثلاثة أيام، وروحنا إلى المغير».(الفزاني،1852،ص 47- 50)

كما لا يترك "صاحب ري الغليل" فرصة تمر دون أن يسخر من بعض العادات ويعتبرها أمور شاذة ومنافية لتعاليم الإسلام، خاصة ما شاهده في بعض الأعراس ، وكأنه يذكرنا بالآية الكريمة بعد قوله تعالى: (لعن الله المتشبهين بالنساء)، فهو يقول عن ذلك : « وعندهم رجال يلبسون مثل النسوان، ويكحلوا أعينهم مثل النسوان، ويحنوا أيديهم وأرجلهم، ويسوكوا بالسواك، ويجعلون رؤوسهم بطيب، ويضفر[ون شعورهم] مثل النسوان، وهم يرقصون مثل النسوان، ويدخلون على كل دار مثل النسوان، ولا عليهم حرج، وهم يسمونهم حلاج.

وبعد ما لعبوا في دبوسة؛ دخّلوا العروسة من باب سيدي عبد السلام، ودخل العريس من باب الخضرة، ولعبوا في القصبة، والشيخ عبد الرحمان يطل من شباك غرفته؛ فكل ما عجبته مرأة، يرسل إلى أمه ترسلها له، فيفعل معها ما يشاء، ولا يستحي من العيب، ويفعل العيب قدام أمه ».

(الفزاني،1852،ص 61)

ب/ حكايات وأساطير:

من القصص الطريفة التي لفتت انتباهي، هي قصة الرجل الأجنبي (لا نعرف من أي جنسية يكون)الذي زار منطقة حيدرة ، واخذ يقوم بتحطيم آثار التماثيل التي جسدها من سكن المنطقة من قبل، إذ يصف المؤلف القصة قائلا: « ولكن نحن لما كنا في ذلك الموضع أتي إلينا رجل، وقال لنا: يا سيدي انه أتي رجل من الروم، فمشينا إليه؛ فلقيناه يأتي إلى ذلك التصاوير الذي في حيدرة ونواحيها، ويقرا في الكتب، ولما يقرأ ذلك الكتب، عنده مكحلة يضرب فوق رأس التصويرة وجهاً من البارود، فتعجبوا – ذلك العرب – من ذلك الفعل، وقالوا: هذه تصاوير أرباب الأولين ومعبوداتهم، فقلنا لهم: ما هي أرباب، وما هي معبودات إلى الناس الأولين، إذا يموت لهم أحد يعز عليهم، يجعلون تصورة مثله؛ لأجل لما يتفقدوه ويشتاحشوه ينضروا لذلك التصويرة [فـ]كأنهم رأوه .فلم يقبلوا ذلك القوم [كلامنا] فذهبوا لذلك التصاوير وطيّحوها وكسروها، فتعجبنا من أمرهم، وقلنا: العيب ليس من العرب، وما العيب إلا على الرومي الذي ضرب على التصاوير البارود، ولو ما كان ضرب البارود قدام العرب لم كسروهم، وهذا كله من قلة العقل، والناس أهل العقل ليس يفعلوا مثل هذا الفعل »(الفزاني،1852، ص08)

وفي موضع آخر يستعرض المؤلف قصة يهودي شاذ أخلاقيا، ونصاب ومحتال، بنوع من السخرية، وكانه يريد القول أن اليهود معروفين عبر التاريخ بالخداع والمكر، وعنون القصة بـ " يهودي محتال " ، فيقول: « وكان في ذلك الوقت ساكن فيه يهودي، يجعل روحه إنه مركانتي، وهو [قد] صاحب نسوان كثير من أكابر نسوان تبسة، وأكل الدراهم من ناس كثير، ومن القياد وغيرهم؛ لأجل يعرف يتكلم بكلام الفرنصيص، ويكذب على العرب، ويقول لهم: اني أتكلم عليكم عند أرباب الدولة الفرنصوية » (الفزاني،1852، ص08)

كما تجدر الإشارة الى أن قصصه ليست كلها سخرية ، ففيها أيضا نوعا من الفكاهة والترف والاستمتاع، خاصة في منطقة تماسين التي كان يستمتع فيها بصيد الوز والدجاج البري، إذ يقول: « وأما مرجاجة [فهي] قبلي تقرت، وهي بحر غارق، وهي [تبعد] خمسة أميال من تقرت، وفيها أشجار الطرفة، والقصب الأكحل، والسمار، وفيها طيور الوز والدجاج الأكحل وقت الخريف والشتاء شيء كثير، وفيها الحوت، وكنا لما روحنا من تماسين، بعد [كل] يومين أو ثلاثة أيام نمشوا إليها، ونجعلوا لبّادة حتى يأتي إلينا الوز والدجاج، ويصير قريب منا فنضربوه، وكل مشية إليها نضربوا منها كثير؛ لأن فيها الوز شيء كثير، وأما إذا أراد أحد يبات في مرجاجة بالليل، فيخرج إليه الوز على جانب مرجاجة على الرمل، ويقتل منه ما أراد »(الفزاني،1852، ص57).

أما في منطقة المغير وضواحيها فكان يستمتع بصيد الغزلان ، مع العلم ان هذه المنطقة لم نسمع عنها ان الغزلان كانت تعيش فيها ، وفي القصة يقول : « وتوجهنا من جامعة، وبتنا – سيدي خليل بتنا

فيه – ومن سيدي خليل بتنا عند أهل المغير، وقمنا ببلاد المغير يومين، ومشينا ذلك النهار الثاني غرب المغير، ومشى معنا رجل من أهل سوف، فدخلنا في غابة من أشجار الزيت، فلقينا فيها الغزال شيء كثير، فقعدنا في شجرة من أشجار الزيت، والرجل الذي معنا يلزلنا في الغزال، حتى صار الغزال قريب منا، فضربنا منه عتروس، ثم نضنا من ذلك الشجرة، وذبحنا ذلك الغزال، وعطيناه للرجل الذي معنا [ف]رفعه، ومشينا حتى لقينا الغزال أكثر من أول مرة، فلوحنا حوايجنا، ولا قعدنا إلا في قميص، خوفاً لا يشم ريحتنا – الغزال – لأنه يشم ريحة الآدمي إذا أتاه بحوايجه، وكل من أراد أن يصطاد الغزال، فلا يأتي إليه فوق ريح، لأنه – الغزال – يشم ريحة الآدمي إذا أتاه من فوق الريح، وإذا أتاه تحت الريح لم يشم ريحته؛ وقعدنا نتمشوا من شجرة إلى شجرة، حتى صار الغزال قريب منا، فمدينا عليه المكحلة، فزدنا ضربنا منه غزال جدع ولد عام واحد، وذبحناه، وروحنا إلى المغير، فأما البرشني عطيناه للرجل الذي نحن نازلين عنده من أهل المغير، وهو اسمه الشيخ محمود»(الفزاني،1852، ص58)

ومن طرائف القصص، قصة عيسى بن نوح. هذا الرجل الذي وصفه المؤلف بالهبال والجنون ،وكان يخشاه كل أهل وادي ريغ بما فيهم السلطان، ولا شك أن الاعتقاد السائد لديهم هو أن له القدرة على آذاء الناس، وبالتالي فهم يهدون له أعز ما يملكون حتى يتجنبون غضبه، إذ يقول المؤلف عن هذا الرجل :« وعندهم رجل يقال له سيدي عيسى بن نوح، رجل بهلي، فهو ما صنعته إلا جاعل بيت تحت شجرة من أشجار الطرفى، وهو يشعل في النار ليلاً و نهاراً، وشتاءً وصيف، ويشرب في التكروري، وهم يخافون منه – جميع أهل وادي ريغ – ويهدوا له أعز ما عندهم، وهو يخاف منه سلطانهم ويهدي إليه ما شاء الله كل عام وكل وقت [وإذا] ما مشيت له تلقاه يشعل في النار في المطر وفي شدة حر الشمس »(الفزاني،1852، ص40).

ج /بعض الشخصيات الواردة في المخطوط :

*** شخصية ابوبريط :**

حسب اطلاعنا لمجريات القصة التي رواها المؤلف حول هذه الشخصية، فهو حاكم فرنسي لمنطقة سور الغزلان، ولقد انتقد المؤلف هذه الشخصية من خلال تصرفاتها ضد الأهالي، بل وانتقد الدولة الفرنسية في احترام العدالة الاجتماعية ،والتي كان يرى انها راعية للسلام والعدالة، وقد جاء هذا الانتقاد على اثر مقتل رجل من أهل قابس ، وفيه يقول : « وأما سور الغزلان [ف]فيه رجل من الفرنصيص اسمه ابوبريط؛ فهو خبرنا عليه ذلك الرجل الذي كنا عنده في سور الغزلان، فقال إلينا: إنه كان [هناك] رجل من أهل قابس يخدم في الجير في سور الغزلان، فعند يوماً صارت بينه وبين مرأة شرموطة في الدوارالذي نازلين فيه السبايس وصرف على ذلك المرأة دراهم كثيرة، وكل ماخد أخذته منه ذلك المرأة، فكان ليلة – بالليل – مرابطها ليبات عندها، فلما توجه إليها، تلاقى هو ورجل من السبابيس متوجهاً لذلك المرأة، فلما

دخل ذلك القابسي إلى البيت الذي فيه المرأة، دخل عليه السباييس، وسل سيفه وضرب ذلك القابسي، فقال [القابسي]: كيف تضربني، فزاد ضربه بالسيف ضربة أخرى، فخرّج القابسي بشطولة له، وضرب ذلك السباييس، فجاءته الضربة على يده وانجرح، فهرب ذلك القابسي، ومنع على السباييس، بالصبح فمشوا وشكوا إلى بوبريط، فتوجه إلى البيت الذي كان ساكن فيها القابسي، فلم يلقاه، وما لقى إلا شريك له وصاحبه، وكان ذلك الرجل مريض، وهو يهز فيه الحمة، فقال له بوبريط: أين صاحبك؟ فقال له: لا علم لي به، وأنا مريض ومستكفي بنفسي، فخرّج بوبريط بشطولة، وقتل ذلك الرجل ظلماً وعدواناً، فاستعجبنا من ذلك الأمر، وقلنا: كيف يقال الفرنصيص ناس يحكموا بالحق، وإذا كان حكمهم مثل ما فعل بوبريط، ومثل بيرو عرب من قسنطينة؛ إذا أتى إليه رجل غريب يريد أن يشكي إليه، يخرج إليه خديمه ويضربه؛ فهذا ليس حكم عدل، وما هو إلا باطل؛ إذا كان كل الحكم مثل هذا »(الفزاني،1852، ص ص 23-24).

*** الشيخ أحمد الطلحي :**

لم يذكر المؤلف أصله ولا نسبه وإنما اكتفى بذكره على انه شيخ قرية تمرنة، غير أن الرسالة التي نفهمها في ذكر هذه الشخصية هو أن هذه القرية كانت تعتمد على النظام المشيخي، والمتتبع لطبيعة المجتمع الصحراوي وبالخصوص منطقة وادي ريغ يرى أن شؤونها كانت تحكمها الجماعة التي يتم اختيار أفرادها من أعيان ووجهاء القوم والقرى، ويعين شيخا يحكم الجماعة ، إذ كانت كل قرية أو دشرة تدار من طرف كبير الوجهاء، غير أن الصراع على السلطة بين أفراد الأسرة الحاكمة أدى إلى مقتل الكثير من الشيوخ خاصة في عهد بني جلاب،في هذ الصدد يذكر المؤلف قائلا: « ومن سيدي يحي تقابلك تمرنة القديمة، وهي قبلة سيدي يحي من نواحي الشرق، ولكن لما دخلنا إلى تمرنة، لقينا رجل اسمه الشيخ أحمد الطلحي، وهو طفل صغير يجي عمره خمسة وعشرين سنة، وهو كان أبيه متولي المشيخة في تمرنة، ولكن لما مات أبيه وخلّفه صغير، وخلّف أخيه أصغر منه، أخذ مشيخة تمرنة رجل ابن عم له، يقال له الشيخ علي بن طاهر، وهو حدثنا الشيخ أحمد الطلحي وقال لنا: إنه الشيخ عبد الرحمان بن عمر بن جلاب أخذ ما خلف أبي؛ أحمد الطلحي »(الفزاني،1852، ص38)

*** الحاج عبد الحميد التركي:**

تبقى هذه الشخصية مجهولة لدينا، غير انه من خلال سياق الحديث يبدوا لنا انه من اسطنبول، وانه قادم في رحلة نحو بلاد السودان، أضف إلى ذلك قد تكون له علاقة بالفرنسيين، حيث كان يفتخر بهم ويمدحهم، ومند التقى الحاج عبد الحميد المؤلف ظل يرافقه في تنقلاته خاصة في مدينة تقرت وضواحيها وباريس. ويذكر سعد الله أن المؤلف كان يلجا إليه في الملمات، حتى كون صداقة معه، بدليل طلب الحاج عبد الحميد من المؤلف مخطوطة رحلته(سعد الله،2005، ص358)، ومما ذكره صاحب ري

الغليل في هذ الرجل ما يلي: « ثم أقدم الحاج عبد الحميد من وادي سوف إلى تقرت، فلاقاه الشيخ عبد الرحمان في المقارين، ولما وصل إلى تقرت، نزّله في دار عمه الشيخ علي بن جلاب، وفرح به غاية الفرح الشديد، وقال له السيد الحاج عبد الحميد: أني رجل من أطراف الدولة [بـ]اسطنبول وحبيبهم، وأني أردت التوجه على طريق ورقلة، ومن ورقلة نريد نتوجه إلى بر السودان، فقال له الشيخ عبد الرحمان: أنت ولد الري الذي كنت عند الحاج عبد القادر [الجزائري] فنحن سمعنا أن الحاج عبد القادر أرسلوه إلى اسطنبول، ومن اسطنبول توجه إلى الحج، ومن الحج أتيت أنت وهو لاحقك، فقال له الحاج عبد الحميد: أني رجل تركي، ولكن صحيح أني صاحب الفرنصيص؛ لأنهم – الفرنصيص – ناس املاح، وفعلوا فينا خير، وإن الفرنصيص يحب جميع الناس، ويحب العافية في كل بلاد، فلا جدا هذا القول على الشيخ عبد الرحمان»(الفزاني،1852، ص73).

وفي موضع آخر يقول: « وأما نحن في ذلك الوقت [كنا] مرضى في بلاد تقرت، وعابت أرجلنا، ولا نقدر نمشوا خطوة واحدة، فأتى إلينا رجل محب لنا يقال [له] سيدي حمودة بن سيدي أبوعزيز وقال الينا: إنه [هناك] رجل تركي أتى من وادي سوف، وقيل إنه يعرف الطب، فامشي إليه؛ لعله يعطيك شيء من الدواء، فمشينا – نحن وسيدي حمودة بن سيدي أبوعزيز – إلى الحاج عبد الحميد، فلما وصلنا إليه في الدار الذي نازل فيها، فرح بنا غاية الفرح الشديد، وقال إلينا: إنك في هذي البلاد ليس تبرى، وإذا كنت تسمع كلامي، تمشي إلى بسكرة، ويداووك طبة الفرنصيص، فلعلك تبرى، فقلنا له: حتى نشبحوا أرواحنا، فإذا زاد علينا المرض، نتوجهوا إلى بسكرة»(الفزاني،1852،ص76).

خـلاصة:

ما يمكن قوله أنني لست أديبا ولا قاصا مختصا حتى احكم على أسلوب المؤلف، وإنما أنا مولع بمطالعة كتب الأدب بمختلف تخصصاتها، وعليه فان كتاب "ري الغليل" ذو أهمية كبيرة لكونه يحتوي على معلومات مهمة حول التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والأدب الشعبي الجزائري، ويقدم حقائق تاريخية حول التواجد الاستعماري الفرنسي بالجزائر وسياسيته القمعية تجاه الأهالي.

كما تجدر الإشارة أن لغة وأسلوب المؤلف في حديثة عن رحلته شانهما شان لغة وأسلوب اغلب المخطوطات العربية: مفردات عامية، جمل غير مركبة،..وغيرها. وما يسترعي الانتباه أيضا في رحلة صاحب" ري الغليل" انه يتوقف عند كل صغيرة وكبيرة في تلك الرحلة ، والمتعارف عليه عند أهل الأدب، وهو بتلك الكتابة في أدب الرحلات لا نجده ساردا للتفاصيل وحسب وإنما نجده حكواتيا جيدا.

قائمة المراجع :

– أحمد محمد حنطور،(2008)،"الرحلات إلى الديار المقدسة ، تعدد الحقائق وتنوع الأفكار"،مجلة الحج
– أبو القاسم سعدا لله،(2005) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، بيروت، دار الغرب الإسلامي،ط3.

– جمعة محمود الزريقي ،(2010)،" أضواء على الرحالين الليبيين"، مجلة الرقيم للآداب العربية.
– محمد بن عبد الجليل الفزاني،(1852)، ري الغيل في أخبار بني عبد الجليل من سلاطين فزان.
– على مصطفي المصراتي،(1977)، مؤرخون من ليبيا : مؤلفاتهم ومناهجهم ، الشركة العامة للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى، طرابلس .